المبحث الأول
العقل الإنساني وحاجته إلى هدى النبوة

وفيه مطلبان:

الأول: المعرفة العقلية.

الثاني: حاجة العقل إلى هدى النبوة.

المطلب الأول
المعرفة العقلية

وجود العقل:

القول بوجود العقل وبأن إدراكاته موصلة بصحيح النظر إلى العلم والمعرفة هو قول العقلاء عامة، وفلاسفة الإسلام خاصة.

والمعارض في ذلك فريقان:

الفريق الأول: يعترف بوجود العقل ولكنه ينكر معارفه العقلية وحقائقه العلمية ولا يقيم وزناً لإدراكاته. وهم طائفة من فلاسفة اليونان القدامى (السوفسطائيون)[1].

وذهب مذهبهم جماعة من المسلمين حيث ذهب البعض وهم الشيعة

---

(١) انظر قصة الإيمان للشيخ نديم الجسر ص٣٧. وسفسطائي كلمة يونانية تعني «الحكيم»، والسوفسطائيون جماعة من معلمي الحكمة ظهروا في القرن الخامس قبل الميلاد في اليونان القديمة. وأشهر دعاتها: بروتاكوراس (٤٨٠ق.م) ودانتفون وبروديكوس. انظر مذاهب ومفاهيم في الفلسفة والاجتماع للدكتور عبدالرزاق مسلم الماجد ص٦٦.

الإسماعيلية إلى: أن النظر غير كاف في اكتساب المعارف. وقالوا: لا بد من معونة معلم إلهي. ولذا يوجبون الرجوع إلى هذا المعلم (الإمام) بدون قيد ولا شرط، لأنه - على زعمهم - وحده الذي سبر باطن النصوص الدينية. وهو وحدَه الذي يميز الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وهو معصوم عن الخطأ عمداً وسهواً، والحقيقة وقف عليه وحده[1].

وذهب بعض آخر، وهم المتصوفة إلى: أن الإلهام طريق المعرفة وليس العقل[2].

وقد فنّد العقلانيون دعوى هذا الفريق، وبيّنوا زيفها، وأبطلوا حججها، وأثبتوا فسادها، وبُعدها عن الحقيقة والواقع.

فهذا أبو حامد الغَزالي يؤلف كتاباً: (القسطاس المستقيم) للرد على دعوى الإسماعيلية، ويبيّن فساد مذهبهم، وبطلان معتقدهم.

وقد حدّد الغزالي في هذا الكتاب قواعد التفكير الصحيح المفضية إلى معرفة الحقيقة، ومهّد للنظر العقلي طريقاً تؤمن لمَن يسلكها الوصول إلى تمييز الحق من الباطل[3]. وإليك جزءاً مما قاله في كتابه (مشكاة الأنوار) في توضيح حقيقة العقل وإمكاناته: العقل يدرك بذاته بكونه عارفاً، ويدرك معرفته لذاته، وينفذ ببصره إلى الأشياء، ويفهم حقائقها، ويستخرج منها أسبابها وأحكامها، أي مصدرها وسبب حدوثها ومكانتها في الموجودات ونسبتها إليها. ونشاطه هذا يمتد إلى كل الموجودات من محسوسات ومعقولات. إنه يدركها، ويتصرف في جميعها، ويطلق عليها أحكاماً يقينية صادقة. ثم إنه يدرك بنوع خاص المعقولات وهي غير متناهية، إذ يدرك الأعداد مهما كبرت وتضاعفت، وعلاوة على ذلك فالعقل منزّه عما يطرؤ على الحس من غلط..[4].

وقال ابن حزم في الرد على دعوى القائلين بأن الإلهام طريق المعرفة وليس العقل: أن المدّعين للإلهام ولإدراك ما لا يدرك غيرهم بأول عقله لا يتفق إثنان منهم على ما يدّعيه كل واحد منهم إلهاماً أو إدراكاً، فصحّ بلا شك أنهم كذَبة.. وأيضاً

---

(١) انظر راحة العقل للكرماني ص١٣٧ و١٩٤. وتوضيح المراد في شرح تجريد الاعتقاد ج٢ ص٦٧٦ والملَل والنِحَل للشَّهْرَسْتاني ج٢ ص٢٩ ومقدمة القسطاس المستقيم لفيكتور شلحت ص١٠.

(٢) انظر الأحكام لابن حَزْم ج١ ص١٤.

(٣) مقدمة القسطاس المستقيم لفيكتور شلحت ص١٤، ١٨.

(٤) المصدر السابق.

فإن الإلهام دعوى مجردة من الدليل، ولو أعطي كل امرىءٍ بدعواه المعَرّاة لما ثبت حق، ولا بطل باطل[١].

الفريق الثاني: ينكر العقل بمفهومه السابق، ويذهب إلى أن: (الحواس الظاهرة والمخيلة هي وسائلنا الوحيدة للمعرفة، وأن ما يسمى بالعقل إن هو إلا جملة أفعال ترجع إليها)[٢].

وأصحاب هذا المذهب يدعون بالحسيين أو التجريبيين أو الماديين، وقد ظهر هذا المذهب في الفلسفة الأوربية أخيراً. وكان من الممهدين له (فرنسيس بيكون) المتوفى ١٦٢٦م ومن أهم رجالاته (جون لوك) (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤م) و(دڤيد هيوم) (١٧١١ ـ ١٧٧٦م) وقد لقي هذا الاتجاه رواجاً وانتشاراً كبيرين عند قسم كبير من الفلاسفة وأصبح له معلمون وأنصار في كل مكان.

إلا أنه واجه ويواجه معارضة شديدة من العقلانيين، وقد قام قسم منهم بدراسات علمية تجريبية للظواهر النفسية الخارقة أثبتوا فيها مغايرة العقل للمادة وقدرته على الإدراك بدون تدخل الحواس، كان أهمها ظاهرة (التلباثي) أي انتقال الفكر. وعرّفه الدكتور (راين) بأنه: الإحساس بأفكار شخص آخر، وبدون تدخل الحواس[٣]. وظاهرة الاستشفاف أو (الجلاء البصري) وعرّفه الدكتور راين بأنه: الإحساس بالأشياء أو الحوادث بدون تدخل الحواس أيضاً[٤]. كما أثبت هؤلاء الباحثون أن ظاهرتَيْ انتقال الفكر، والجلاء البصري مظهران لظاهرة واحدة سمُّوها (الإدراك خارج الحواس).

وأثبتوا أن هذه الظاهرة، أي ظاهرة الإدراك خارج الحواس، لا تخضع للعلاقة المكانية والزمانية التي تخضع لها جميع الظواهر المادية، وظواهر الطاقة سواء أكانت كهربائية أو حرارية أو ضوئية أو غيرها.

وقد عرضت نتائج هذه الأبحاث على مؤتمرين لعلماء الولايات المتحدة، أولهما: في الرياضيات الإحصائية الذي انعقد عام ١٩٣٧. وثانيهما: لعلماء النفس الذي انعقد عام ١٩٣٨م، وأقرّ المؤتمرون هذه الأبحاث، وسلّموا بالنتائج التي تمخضت عنها[٥].

---

(١) الأحكام ج١ ص١٧.

(٢) العقل والوجود ليوسف كرم ص٨ وانظر دائرة معارف القرن العشرين مادة (عقل).

(٣) (٤) العقل وسطوته ص٢٦ للدكتور ج.ب. راين أستاذ علم النفس في جامعة ديوك الأمريكية، ترجمة الدكتور محمد الحلوجي.

(٥) انظر المصدر السابق ص١٨٥.

واتفقت المذاهب الإسلامية على عدم الاقتصار على المعارف العقلية، وقرروا حاجة العقل الإنساني إلى مُعين يستعين به في تحديد الأعمال، وتعيين الوجه في الاعتقاد بصفات الله، ومعرفة ما ينبغي أن يعرف من أحوال الآخرة، وتنبيه العقل إلى ما غفل عنه، أو ضعف عن إدراكه، وذلك المعين هو النبي، ووافقهم في ذلك جل الفلاسفة وجميع المؤمنين بالشرائع السماوية. وخالف في ذلك بعض الفلاسفة كبراهمة الهند، حيث اكتفوا بالمعارف، وقرروا عدم حاجة العقل الإنساني إلى هدى النبوة.

المطلب الثاني
حاجة العقل الإنساني إلى هدى النبوة

إيمان العقل.. وإيمان الوحي..

إن الاعتقاد بوجود الله تعالى والإيمان بصفاته الكمالية، كما يتم بواسطة مَن اختصهم الله بالبشارة والنذارة، يتم بالعقل الإنساني على نحو الاستقلال. فإذا وصل مستدل ببرهانه إلى إثبات وجود الله تعالى والإيمان بسبحانه غير السمعية دون أن تبلغه بذلك دعوة نبي كما حدث لبعض مَن سمت عقولهم، وصفت نفوسهم من البشر، ثم انتقل من النظر في ذلك إلى الاعتقاد ببقاء النفس الإنسانية بعد الموت، وأن لها حياة أخرى بعد الحياة الدنيا تتمتع فيها بنعيم أو تشقى فيها بعذاب أليم. وأعتقد أن السعادة والشقاء في تلك الحياة الباقية مقرونان بأعمال الإنسان في هذه الحياة الفانية، سواء أكانت تلك الأعمال قلبية كالاعتقادات، أو بدنية كأنواع العبادات، ثم خلص من ذلك إلى أن سعادة النفس إنما تكون بمعرفة الله وبالفضائل، وأن شقاوتها إنما تكون بالجهل بالله تعالى وبالرذائل، فلا مانع حينئذ من أن يدعو هذا الإنسان المدرك لهذه الحقائق إلى الله، وأن يضع لذلك ما يشاء من القوانين ليدعو بقية البشر إلى الاعتقاد بمثل ما يعتقد وإلى أن يأخذوا من الأعمال بمثل ما أخذ به من حيث لم يوجد شرع يعارضه[1].

---

(١) انظر رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ص٧٢ و٨٩ وفي ٩٠ يقول: «اتفقت كلمة البشر موحدين ووثنيين سليين وفلاسفة إلا قليلاً لا يقام لهم وزن على: أن لنفس الإنسان بقاء تحيا به مفارقة البدن وأنها لا تموت موت فناء (أي لا تزول زوالاً مطلقاً)، وإنما الموت المحتوم هو ضرب من البطون والخفاء. وإن اختلفت منازعهم في تصوير ذلك البقاء وفيما تكون عليه النفس فيه، وتباينت مشاربهم في طريق الاستدلال عليه.